مقارنون من الشرق
يثورون بالدرس المقارن للأدب في الغرب

د. عبد النبي اصطيف

ناقد وباحث وأستاذ جامعي من سورية ـ عضو اتحاد الكتاب العرب

ثلاثة أعلام من أبرز مُنظِّري الدرس المقارن للأدب في العالم كانوا وراء التغيرات الجذرية التي شهدها هذا الدرس في العقود الخمسة الأخيرة، والتي حوّلته من درس تسوده نزعة المركزية الغربية، وينصرف في معظم تدبّره إلى الأدب الغربي مُمَثَّلاً بالأدب الأوربي الغربي، وأدب أمريكا الشمالية، وبعض الأعمال الروسية والشرقية والاسكندنافية والهسبانية، إلى درس نقدي عولمي Global أو كوكبي، ينشغل بمتن يشمل آداب العالم كلها، يقاربه بمنظورات تنبذ العنصرية الغربية وراء ظهورها، وبحس نقدي إنساني عميق.

ثلاثة أعلام جاؤوا من خارج العالم الغربي، أولهم العربي ـ الفلسطيني الذي جاء من بيت المقدس، والذي تحوّل إلى منفيٍّ أبديٍّ، وطنُه الكتابةُ، وأداتُه لغة الغربي الذي كان وراء مأساته ومأساة شعبه، ذاك هو **إدوارد سعيد** صاحب كتاب الاستشراق (Orientalism 1978)، والثقافة والإمبريالية (Culture and Imperialism, 1993) وغيرهما من روائع الفكر الذي أنجب النظرية ما بعد الاستعمارية Postcolonid Theory؛

وثانيهم الهندية البنغالية التي جاءت من كلكتا بعد أن درست الأدب الإنكليزي في الكلية الرئاسية Presidential College في جامعتها، ومضت من الهند، جوهرة التاج البريطاني، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لتصبح واحدة من أبرز نقاد أمريكا في ميادين: التفكيك، والنظرية النسوية، والدرس المقارن للأدب. وتلك هي **غاياتري شاكرافورتي سبيفاك** Gayatri Chakravorty Spivak، مترجمةُ ديريدا، ودارسةُ ويليام بتلر يتيس(1)William Butler Yeats، وناعيةُ الدرس التقليدي المقارن(2)، وصاحبة مقولة المنضوي Subaltern؛

وثالثهم الصينية المتحدّرة من أسرة مسلمة، والتي جاءت من أقصى الشرق، من هونغ كونغ، حيث درست الأدب الإنكليزي في جامعتها، ومضت نتيجة افتتانها به لمتابعة دراستها في جامعة ستانفورد، وانطلقت منها للتدريس في عدد من كبريات الجامعات الأمريكية، لينتهي بها المطاف في جامعة ديوك المرموقة، تدرس النظرية ما بعد الاستعمارية، والنظرية النسوية، والأدب المقارن من منظور يتجاوز معظم المواصفات الغربية في هذه الميادين. تلك هي **راي تشو** Rey Chow أبرز النقاد الثقافيين في عالم اليوم.

والحقيقة أن ما يجمع بين هؤلاء الأعلام ليس كونهم خارجيين Outsiders، قدِموا من وراء المحيط إلى بلد الوفرة –الولايات المتحدة الأمريكية فقط-، فهم مثل غيرهم من المهاجرين الذين قصدوها للعلم والمعرفة اللذين تيسرها لهم.

فقد درس **سعيد** بداية في مدرسة جبل حرمون في ولاية ماستشوستس، وبعدها في جامعة برنستون حيث حاز شهادة الإجازة في الأدب والتاريخ، ومضى بعدها إلى جامعة هارفرد ونال منها شهادتي الماجستير والدكتوراه، قبل أن يُدرِّس في جامعة كولومبيا في نيويورك لأربعة عقود؛

وسبيفاك القادمة من الهند درست الأدب الإنكليزي في جامعة كورنيل على يد بول دومان ونالت منها شهادتي الماجستير والدكتوراه، جامعة في أثنائها بين العمل والدراسة، لينتهي بها المطاف في جامعة كولومبيا، أستاذة للأدب المقارن؛

وراي تشو التي جاءت من جامعة هونغ كونغ بإجازة في الأدب الإنكليزي، وتوّجت دراستها في جامعة ستانفورد على الشاطئ الغربي للولايات المتحدة الأمريكية بحصولها على درجتي الماجستير والدكتوراه في الأدب المقارن، قبل أن تنتقل للتدريس بداية في جامعة كاليفورنيا في إرفنغ، ثم في جامعة براون على الساحل الشرقي، وأخيراً أستاذة كرسي آن فيرر سكوت للأدب في كلية ترينتي في جامعة ديوك، في ولاية كارولاينا الشمالية.

أي أن الثلاثة قد انطلقوا في تكوينهم المعرفي والثقافي من متن الأدب الإنكليزي، ومن القانون الأدبي الإنكليزي الذي يحكمه، ومن القانون الأدبي والغربي عامة. غير أنهم قاربوه بحس نظري عال، ورفيع، ومضوا بعيداً في مساءلتهم له إلى درجة تفكيكه، والكشف عما يعتوره من سوءات العنصرية، والتمركز المسرف حول الذات، والنظر باستخفاف إلى كل ما

هو خارج عن الثقافة الغربية، وما لا يمتثل لأعرافها ونظمها وقيمها ومعاييرها.

وهذا طبيعي فقد تكوَّنوا ثقافياً في الغرب ومستعمراته المنضوية تحت نفوذه بل سيطرته (فالهند وهونغ كونغ كانتا محكومتين من جانب بريطانيا، وفلسطين، التي ولد سعيد في عاصمتها-القدس كانت كذلك تحت الانتداب البريطاني، وكذا كان حال مصر التي انتقل إليها بعد النكبة، فقد كانت تحت الحماية البريطانية)، وكان من الطبيعي كذلك أن ينطلقوا في نقدهم من مقولات ومفاهيم متجذرة في الغرب، غير أنهم بحسهم النقدي الرفيع وظَّفوها إيجابياً لصالح من التزموا بقضاياه وهو الإنسان عامة، وإنسان وطنهم الذي غادروه على وجه الخصوص.

وهكذا رأينا سعيد يدعو في مؤلفاته، ولا سيما الثقافة والإمبريالية إلى القراءة الطباقية للنصوص، والتي تسمح بسماع صوت المستعمَر، والضعيف، والفقير، والملوَّن، والأسود، وتضعه في مواجهة صوت المستعمِر، والقوي، والغني، والأبيض -الذي يهيمن على أرشيف الثقافة العالمية ويعلو صوته في مختلف جنباتها على الأصوات الأخرى. وسعيد في دعوته هذه إنما يصدر عن مفهوم مستمد من الموسيقا الغربية هو مفهوم النظير الطباقي counter point، الذي يسمح، في الموسيقا، بسماع عزف مختلف الآلات الموسيقية على نحو متزامن دون أن يطغى أحدها على الآخر، مستعينا على ذلك بعلم الهارموني أو الانسجام. يكتب إدوارد سعيد في كتابه «الثقافة والإمبريالية»:

«إننا إذ نعاود النظر إلى الأرشيف أو سجل المحفوظات الثقافي، نأخذ بإعادة قراءته ليس أحادياً univocally، بل طباقياً contrapuntally، وبوعي متزامن لتاريخ الحواضر الذي يتم سرده، ولتلك التواريخ الأخرى التي يعمل الإنشاء المهيمن ضدّها (ومعها كذلك).

في نقطة الطباق counterpoint الخاصة بالموسيقى الغربية تتعارض موضوعات متنوعة فيما بينها، مع امتياز مؤقت يمنح لواحد محدد منها فقط، ومع ذلك يكون ثمة تلاؤم ونظام في التعدد الصوتي الناجم، يكون ثمة تفاعل منظم مستمدٌ من الموضوعات، وليس من مبدأ لحني صارم أو مبدأ شكلي خارج العمل. إنني أعتقد أننا نستطيع أن نقرأ ونفسر، بالطريقة نفسها، الروايات الإنكليزية على سبيل المثال، والتي يتشكل انشغالها (المقموع عادة في أغلب الحالات) مع، لِنَقُل، جزر الهند الغربية أو الهند، وربما يتحدّد بالتاريخ المعيّن للاستعمار، والمقاومة، والقومية الأصلية. وعند هذه النقطة تنبثق سرديات بديلة أو جديدة، وتغدو ذواتاً مؤسسة أو مستقرة إنشائياً»[3].

ورأينا سبيفاك تدعو إلى أدب مقارن جديد يقوم على شفع الدرس المقارن التقليدي للأدب، القائم على المركزية الغربية، بدراسات المنطقة Area Studies مصرّة على أن تتم دراسة أدب «الآخر» المنضوي بلغته الأم، وليس عن طريق الترجمة إلى لغة عالمية (هي إحدى اللغات الغربية). ومع أن «دراسات المنطقة» مفهوم غربي أمريكي، اصطنعته الولايات المتحدة

الأمريكية- لاحتواء مختلف مناطق العالم وتدبّرها بعد الحرب العالمية الثانية، عندما غدت القوّة العظمى الأبرز في العالم، فإن سبيفاك وجهت العناية بلغات المناطق، التي انطوى عليها المفهوم، لِتَخدم فهمَ الدارس لأدب المنطقة المدروسة، ومن ثم استيعاب تطلعات شعبها أو شعوبها وآمالهم وآلامهم وطموحاتهم، دون وساطة الترجمة، التي غالباً ما يلجأ إليها الدراس المقارن للأدب في كثير من حالات الدرس المقارن لأدب المنضوي الضعيف الناطق بلغة غير واسعة الانتشار، كاللغة البنغالية، لغة سبيفاك الأم. وهكذا فإن الأدب المقارن الجديد الذي تدعو إليه سبيفاك يقوم على الجمع ما بين الدرس المقارن للأدب ودراسات المنطقة، مع عناية خاصة بلغة المنطقة المدروسة تفوق عناية العلوم الإنسانية والاجتماعية التي لا تتعدى استخدامها لغة بحث ميداني، بل إنها تسمو بهذه العناية إلى مستوى يُمكِّن الدارس المقارن من تدبر لغة النص الأدبي تدبر الناقد الأدبي الخبير بدقائقه وعلاقاته الداخلية وخصائصه الأسلوبية ومجازاته وصوره، أو قراءته قراءة متمعنة إذا ما رغبنا في استعمال ما دعاه النقاد الجدد بـ Close reading.

ورأينا راي تشو Rey Chow تدعو بدورها إلى إجراء مقارنات ضمن اللغة الواحدة[4]، ذلك أنه «يمكن أن نُدرِّس الطلاب، فيما يبدو لها، كيف يمكن أن يكونوا مقارِنين ضمن اللغات «الفردية»[5]، فيقوموا بإجراء مقارنات ضمن أدب اللغة الواحدة، ولاسيما في حالات كثيرة تُستعمَل فيها اللغة الواحدة على عدة مستويات، ومن جانب مجموعات إثنية أو عرقية (فالأمريكيون المتحدِّرون من أصول إفريقية African-American يستعملون الإنكليزية-الأمريكية على نحو مختلف عن استعمالها من جانب الأمريكيين من أصول أوربية، أو من جانب أولئك المتحدرين من أصول صينية أو يابانية أو كورية) أو اجتماعية مختلفة، وفي مناطق جغرافية متباعدة، كاللغة الإنكليزية التي تستعمل في بلدان عديدة (الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، والمملكة المتحدة، وإيرلندا، وأستراليا، ونيوزيلاندا، فضلًا على بلدان أخرى يكتب بعض كتابها بالإنكليزية كالهند وباكستان وزمبابوي وغيرها من الدول الإفريقية والآسيوية، نتيجة عيشهم في ظل التَّرِكَة الاستعمارية Colonial Legacy من جهة، وحياة الهجرة والمنفى من جهة أخرى)، واللغة الفرنسية التي تستعمل لغة أُمّاً في بلدان عديدة (فرنسا، وبلجيكا، وسويسرا، وكندا، وبعض الدول الإفريقية، وفي بلدان ما بات يُعرف بالبلدان الفرنكوفونية، ومن جانب كُتّاب عرب وأفارقة يعيشون في فرنسا أو بلجيكا أو سويسرا ويستعملون الفرنسية يخاطبون بها قرّاء مستعمريهم السابقين، ويقدمون من خلالها تجارب فريدة في الحياة الإنسانية في مرحلة ما بعد الاستعمار). هذا إن لم ننس كُتّاب الجاليات المهاجرة في البلدان الغربية الذين ينتجون آدابا بلغات مواطنهم الجديدة، ويعبرون فيها عن تجارب حياة عاشوها، أو عاشها آباؤهم وأجدادهم وسمعوا عنها منهم، بلغاتهم الأصلية، مما يُدعى اليوم بآداب الشَّرْطَةHyphenated Literatures أو الآداب الهجينة

.Hybrid Literatures

ودعوة تشو هي في الواقع نبذ للشرط الفرنسي الذي يصرّ على أن تتم المقارنة بين أدبين مختلفي اللغة، ذلك أن الفروق الثقافية تفضي إلى استعمالات متباينة للغة، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الفروق الاجتماعية والعرقية التي تؤثر في استعمال المرء للغة التي يشترك فيها مع شرائح اجتماعية وعرقية وثقافية أخرى تستعمل اللغة ذاتها بطرق متنوعة تسمح بإجراء مقارنات بين مُنتَجاتها الأدبية، وتفسح المجال واسعاً أمام الدرس المقارن للأدب لتدبُّر نصوص المهمشين، والمنضوين، والأقليات في المجتمعات الإنسانية.

ومعنى هذا أن دعوة تشو إلى تبني مقولة الفروق الثقافية، وتَبيُّن انعكاساتها في استعمال اللغة وفي المنتَجات الأدبية ضمن اللغة الواحدة، مستمَدة من منجزات علم اللغة الاجتماعي sociolinguistics والدراسات الثقافيةcultural studies، ولكنها تصب في مصلحة المُهمَّشين والأقليات والمستضعفين في عالمنا وتحاول إنصافهم، وإعادة الاحترام والتقدير لما ينتجون من أدب. وكذلك فإن لجوءها إلى فلسفة «التفكيك» Deconstruction في مساءلتها لمقولات الفكر الغربي وأنظاره النقدية والأدبية، أثمرت زعزعة مُزلزِلةً لهذا الفكر، ومن ثم أضعفت هيمنته على التفكير النقدي والأدب في عالمنا.

والحقيقة أن مساءلة القانون الغربي في الدرس المقارن بأدوات وأفكار ومقولات ومفاهيم وتقانات غربية، تَمَكَّن منها مقارنونا الثلاثة، ووظَّفوها في نقد الفكر الغربي السائد، قد أثمرت تغييرات جذرية في الدرس المقارن للأدب في عالم اليوم.

وأول هذه التغييرات التحوّل من «الأدب المقارن» بتركيزه على تسنم القارة الأوربية والغرب عامة هرمية آداب العالم إلى «الأدب العالمي»(6) World Literature، عبر عوْلمة الدرس المقارن للأدب، وتجاوز الحدود التي أقيمت بين آداب أوربة والغرب وآداب سائر العالم، وتلك التي أقيمت بين الآداب الكبرى والآداب الصغرى، وبين الآداب الرسمية، والآداب الشعبية، وبين آداب الأكثرية وآداب الأقلية، وبين آداب الغرب وآداب الشرق، وآداب الشمال وآداب الجنوب. وهو ما جعل جامعة هارفرد تُقدم على دعوة ديفيد دمروش أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا إلى تسنم كرسي الأدب المقارن فيها للمساعدة في بناء قسم عولمي Global Department، ودمج برنامج الدرجة الجامعية الأولى ببرنامج الأدب المقارن في الدراسات العليا، وقد نجح الرجل، كما تؤكد ذلك أعماله ونشاطاته المتنوعة، في خلق قسم موحّد يمثل في رأيه «الأدب المقارن العولمي» Global Comparative Literature على نحو أفضل، ودفع عملية عولمة الدرس المقارن للأدب فيها. وخلاصة هذا التغيير هي التحول من القارية الأوربية إلى العالمية أو الكوكبية، وما يواكب هذا التحوّل من نظرة إلى الإنسان على أنه واحد أينما كان، وكائناً من كان.

وواقع الحال أن هذا التحوّل قد قاد إلى توسّع في متن corpus الأدب المدروس مقارنياً

ليشمل متوناً غير المتون الغربية المحكومة بالقانون الأدبي الغربي –الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى النظر إلى القوانين الأدبية الأخرى التي تحكم الآداب غير الغربية. ومعنى هذا أن المتن الأدبي الكوكبي أو العولمي الذي سيصدر عنه المقارنون المعاصرون متن محكوم بقوانين عديدة، والقانون الأدبي الغربي ليس إلا واحداً منها، وديموقراطية المعرفة تُحتِّم الأخذ بالحسبان ما تُقرُّه القوانين الأدبية الأخرى، ولا تكتفي بالقانون الغربي وتتّخذه معياراً ومقياساً تُقيِّم بهما الآداب الأخرى، وتصنفها بعدها، وتحدد مواقعها في دائرة الأدب العالمي –قرباً أو بعداً من المركز تبعاً لهما. إن عالم اليوم لم يعد أحادي القطب، ولا ثنائيه، وإنما هو متعدد القطب، حتى في مجال الأدب والفن، ذلك أن لكل أمة أدبها، ولكل شعب فنه، والمنظور العولمي في الدرس المقارن للأدب يؤمن بالديموقراطية ما بين آداب العالم، ويحارب مناطق النفوذ اللغوي والأدبي التي تسعى من خلالها بعض القوى العظمى إلى فرض هيمنتها على العالم بما تملكه من قوة اقتصادية أو عسكرية.

لقد جاء المقارنون الثلاثة من الأطراف، من الضواحي، من المحيط، من الهامش، واستوطنوا القلب من المركز، غير أنهم لم ينسوا مساقط رؤوسهم، حيث فتح كل منهم عينيه على الحياة فيها، وحملوها في عقولهم، وحاولوا من خلال مواقعهم المتميزة في المؤسسات الجامعية الأمريكية أن يغيروا مواقف الحاضرة من الضواحي، وموقف المركز من المحيط، ومركز المتن من الهامش، وعملوا على تغيير طبيعة العلاقة التي يمكن أن تقوم ما بين الطرفين، مؤكدين ضرورة قيامها على الاحترام والتقدير المتبادلين، وعلى نبذ كل مظاهر الطبقية الأممية التي سادت في المرحلة الاستعمارية وما بعدها. وكان ذلك لإيمانهم بثقافتهم الأم، وكونها تشكل مصدر غنى للثقافة الإنسانية، ولذلك حضوا على احترام «التنوع» في الحياة الإنسانية، وعلى ضرورة احترام «الآخر» بصرف النظر عن لونه، وعرقه، ولغته، ودينه، وموقعه الاجتماعي، والاقتصادي.

وفضلاً على ما تقدم فقد كانوا يؤمنون بأن الإنسان واحد، وفنه واحد، وأدبه واحد، وشفعوا إيمانهم العميق بإنسانية الإنسان، أينما كان، وأياً كان، بالتزامهم العميق بمناهضة الظلم أينما كان، خاصة وأنهم شهدوا مظاهر صارخة منه في بلدانهم الأصلية: سعيد بطرده من وطنه، وإحلال المغتصِب فيه بالقوة الغاشمة؛ و سبيفاك بالاستعمار البريطاني لبلادها واستغلال خيراتها ونهب ثرواتها حتى الثقافية منها؛ وراي تْشوي باحتلال بريطانيا لبلدها واقتطاعها له من أمه الصين، وفرض ثقافة المحتل ولغته ونظامه على مختلف وجوه الحياة فيه، وعاشوا كذلك عقابيل هذا الظلم في الفترة ما بعد الاستعمارية، وخبروا التركة الاستعمارية لاحقاً وما تركته من تخلّف وفقر يفتكان بمجتمعاتهم، ويبقيانها في موضع المنضوي الأبكم، الذي لا يمكنه أن يتكلّم[7].

وهكذا فإنهم بزعزعتهم للمركزية الغربية من خلال مساءلة أسسها، وتوسيعهم لدائرة

البحث المقارني لتشمل آداب الغرب وما وراء الغرب، ودمجهم لآداب الجنوب في متن الأدب العالمي، ومنح قوانينها الأدبية ما تستحقه من احترام وتقدير في ظل تعددية القطب في عالم الأدب والفن والثقافة؛ وتفكيكهم في نهاية المطاف مختلف مقولات الدرس المقارن وشروطه على الطريقة الغربية، تفكيكاً لم يكن عدمياً البتة، بل كان تفكيكاً إيجابياً أسهم في الخروج من مأزق هذا الدرس الذي وصل به مسعاه الغربي إلى طريق مسدود، بعد أن وضعه على سكة عولمة حميدة تؤمن بتعددية الثقافات والآداب والفنون، مثلما تؤمن بوحدة الإنسان.

هوامش:

(1) انظر كتابها: Myself Must I Remake: The Life and Poetry of W. B. Yeats, (1974).

(2) انظر: Gayatri Chakravorty Spivak, Death of A Discipline (Columbia University Press, New York, 2003).

(3) انظر: Edward W. Said, Culture and Iimperialism (Alfred A Knopf New York, 1993), p. 51.

(4) انظر: Rey Chow, "In the Name of Comparative Literature", in: Comparative Literature in the Age of Multiculturalism, Edited by Charles Bernheimer (The Johns Hopkins University Press, Baltimore and London, 1995), pp. 107--116.

(5) انظر: Rey Chow, "In the Name of Comparative Literature", in: Comparative Literature in the Age of Multiculturalism, ibid, p. 114.

(6) ربما كان من الضرورة بمكان التذكير بأن مفهوم غوته للأدب العالمي Weltliteratur مفهوم هرمي/طبقي، لا ينظر إلى جميع الآداب نظرة واحدة، وهو ما نبّهت عليه ت. ليزيرفوت في بحثها المعنون بـ «من الأدب العالمي (بتصور غوته) إلى الأدب العالمي (بالتصور الشائع لاحقاً) إلى الأدب العالمي (بالمنظور الفرنسي)»، حيث كتبت: «على الرغم من رغبة غوته المبدئية في تحطيم القانون الثابت للكلاسيات بالتجرؤ على اقتراح أنه من الممكن الإعجاب بالمؤلفين المعاصرين، فإن مفهوم «الأدب العالمي» لديه يظل مفهوماً نخبوياً يُفضِّل الإنتاج الأدبي لأمم معينة على الإنتاج الأدبي لأمم أخرى (فرنسا على ألمانيا)، ولفترات معينة على فترات أخرى(العالم القديم على العالم الحديث)، ولأجناس معينة (الشعر بدلاً من الرواية)، ولقرّاء مُعيَّنين (أولاء الذين ينتمون إلى طبقات النخبة بدلاً من الطبقات الأدنى)».

وانظر: Typhaine Leservot, "From Weltliteratur to World Literature to Littérature-monde: The History of a Controversial Concept", in: Transnational French Studies: Postcolonialism and Littérature-monde, edited by Alec G. Hargreaves, Charles Forsdick and David Murphy (Liverpool University Press, Liverpool, 2010), p. 40

(7) الإشارة إلى مقالة سبيفاك الواسعة الانتشار: Gayatri Chakravorti Spivak, "Can the Subaltern Speak?" in: Cary Nelson and Lawrence Grossberg (eds) Marxism and the Interpretation of Culture London (Macmillan, London, 1988).